تصريح الرئيس الأمريكي عن الدولة الفلسطينية

شيك مجهول القيمة مسحوب على بنك مجهول محل الإقامة

هل سيتهمنا غيرنا في البلاد العربية، وربما في الساحة الفلسطينية، بقصر النظر السياسي إذا نحن لم نر جديدا فيما قاله جورج بوش عن الدولة الفلسطينية؟ أو يتهموننا بالجمود وأعراض الاكتئاب المرضي إذا لم تصبنا عدوى الفرح الذي طاش معه عقل الكثيرين، بعد أن شرب الرئيس الأمريكي حليب السباع ورد على الفظاظة الشارونية بلطافة أمريكية قائلا:" هذا غير مقبول!؟ فليس لإسرائيل أصدقاء أخلص من الولايات المتحدة ومني شخصيا " (وقد تجاهلت أجهزة الإعلام العربية هذا الشق الأخير من تعليق بوش).

الحقيقة أننا نتوجس شرا من اقتراب الرؤساء الأمريكيين من قضيتنا. و هو نوع من التوجس لا يشبه ذاك الذي يصيبنا عندما تقترب منا (الأباتشي) الأمريكية لتقصفنا وهذا هو توجس اللحظة المشحونة بالتوتر ولكنه النوع الآخر الذي يشبه الصداع النصفي ويخص المصير. أي يبعث على القلق الممتد إلى المستقبل.

ونحن نعرف من واقع تجربتنا على كل حال، أن الرؤساء الأمريكيين لا يملكون كلمتهم عندما يتصل الأمر بالقضية الفلسطينية. ونتذكر مثلا كيف أن جيمي كارتر أطلق في أسوان أيام مفاوضاته مع السادات عام ١٩٧٧ تصريحا عن تشجيع الولايات المتحدة إقامة وطن قومي للفلسطينيين، ثم عاد فلحس بصقته الكبيرة حالما عاد إلى الولايات المتحدة، وأصدرت الرئاسة الأمريكية تصريحا مخالفا ألغى التصريح الأول.

كان كارتر حين أطلق تصريحه يعمل على جر قدم السادات إلى كامب ديفيد الأولى. ولا شك أن السادات ألح عليه في الشأن ذاته الذي يلح الحكام العرب اليوم على لزوم أخذه بالحسبان، بمناسبة جر أقدامهم إلى التحالف الأمريكي، وهو الشأن الفلسطيني المزمن. وربما يكون كارتر مثل بوش اليوم اقتنع في لحظة من اللحظات أن تسوية المسألة الفلسطينية قد تفتح للسياسة الأمريكية في المنطقة أبواب القلوب وبقية الأبواب المغلقة بعدما اقتحمت بالقوة، وبالرشوة، وبالصفقات، وبالجاسوسية، أبواب الحكومات والأجهزة والمصالح الاقتصادية منذ زمن.

ولكن كارتر عاد، كما قلنا، فسحب أقواله صاغرا. وتقيد فيما بعد فقط بما أملاه عليه واضعو السياسات الشرق أوسطية بأمريكا، أي بمشروع (الحكم الإداري الذاتي) الذي قال مناحم بيجن بلسانه ولسان أشد عناصر المحتلين تشددا،إنه المشروع الوحيد المقبول إسرائيليا. وهكذا أصبح المشروع الوحيد الذي يسمح به أنصار اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة.

حالة أمريكية مستعصية

نعم. لقد نفذ الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون، وهم الواجهة الديمقراطية للنظام الأمريكي، تعليمات اللوبي الصهيوني بدقة في كل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي هي محور التأثير في بقية السياسات في الشرق الأوسط، حتى بات الكثيرون في بلادنا مقتنعين أن أمريكا الدولة ليست لديها سياسة خاصة بها خارجة عن سياسة إسرائيل في هذه المنطقة من العالم. وأنها تردد المقولات الإسرائيلية بحذافيرها، وتدعم المواقف الإسرائيلية، ولو أفرزها أي مجرم حرب من صنف بيجن وشامير وشارون.

وبالنظر إلى ما هو واضح من تغلغل اللوبي الصهيوني في أوساط الحزبين الأمريكيين الكبيرين على حد

سواء، فإن هذه الحالة المستعصية يصعب أن ننتظر منها أي خير على المدى القصير والمتوسط.

وقد لاحظنا قبل حوالي عشرة أيام التصريح الذي تفوه به أحد أعضاء الكونغرس النافذين في يمين الحزب الجمهوري كما يقال، مهددا متوعدا بوش بأن التأييد له من قبل أوساط الحزب مشروط بتشدده في شأن ما يسمى الإرهاب، وأن العناصر المحافظة في الحزب ترى أن بوش أبدى بعض التردد مؤخرا، وأنه سيلقى المتاعب في الحزب، وبالتالي في الكونغرس، إذا لم يعد عن ترددده. وعلى الرغم من تأكيد كثير من الرسميين الأمريكيين أنهم لا يعنون بكلمة الإرهاب الإسلام والمسلمين والعروبة والعرب، فإن النذر تغني عن الخبر. فقد رفضت الإدارة الأمريكية تأييد بعض التصريحات التي نقلت عنها تطمينات بأن العراق غير مشمول بعبارة الإرهاب وإن الضربات القادمة لن تستهدفه. وما زالت دول عربية كسوريا والسودان مصنفة في قوائم الدول الحامية للإرهاب. وفي البداية خلت بعض القوائم الأمريكية التي تعدد المنظمات الإرهابية من ذكر بعض منظمات المقاومة، ثم تحدثت أنباء أخرى عن قوائم تضم حزب الله وحماس والجهاد، على الرغم من كونها منظمات لم تمارس عمليات عنف خارج حدود أوطانها.وإجمالا إن الولايات المتحدة ثابرت على رفض الدعوات الجادة التي طالبت بتحديد معنى الإرهاب وتحديد الفاصل بين ذلك المعنى وبين المقاومة المشروعة للاحتلال. كما ثابرت على رفض مرجعية الأمم المتحدة إطارا لمكافحة الإرهاب.

غلطة عمر إسرائيل؟!

من حقنا إذن أن نتشكك في تصريح بوش حول القبول بمبدأ إقامة دولة فلسطينية وأن ندرج هذا التصريح ضمن جهود الدعاية اللازمة لإقامة الحلف الأمريكي العربي الإسلامي، تمهيدا لضرب كل ظاهرة عربية أو إسلامية معادية للولايات المتحدة أو لإسرائيل. ففي ملف سيرة بوش شيء يصدم الحس العربي الإسلامي بقوة. إذ سبق لبوش أن (حج) إلى إسرائيل أيام كان يشغل منصب محافظ في أمريكا، وكان شارون يشغل وظيفة وزير البنى التحتية. وقيل إن شارون الوزير اصطحب بوش المحافظ إلى جبل الزيتون في القدس، ليريه القدس القديمة من ذلك الارتفاع، وإذا ببوش وقد شاهد قبة الصخرة المشرفة يقول:

. أتدري أنكم أخطأتم خطأ العمر؟

وسأله شارون:

. وكيف ذلك؟ فأجابه بوش:

. حينما لم تهدموا المسجد عام ١٩٦٧ في سياق الحرب.

وسواء تغير بوش الرئيس بعدما تولى الرئاسة أم لم يتغير، فإن مما يعزز شكوكنا أن كلا من نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الحرب دونالد رامسفيلد، وهما اثنان من بين أقرب ثلاث شخصيات حول الرئيس، أصدرا حتى اليوم تصريحات تنضح بسم الكراهية ضد الفلسطينيين والعرب. أما الشخصية الثالثة وهي كولن باول، فقد أصبح متهما بتهمة الاعتدال والوسطية. وقد حذرت أوساط اليمين الجمهوري الرئيس بوش من الانسياق وراء آرائه!

ومما يستلفت النظر في الآونة الأخيرة أن الشخصية التي أوفدتها الإدارة الأمريكية للقيام بالجولة الشرق أوسطية، كانت وزير الحرب رامسفيلد وليس وزير الخارجية باول. وفي ذلك احتقار واستهتار واضح بالمنطقة ومشاعرها من الناحيتين الشكلية والموضوعية. فمن الناحية الشكلية لم تأخذ الإدارة الأمريكية بالحسبان متابعة

الرأي العام تصريحات الشخصيات المختلفة ومعرفته بمدى تحزبها لإسرائيل. ومن الناحية الموضوعية كان إيفاد وزير الحرب بدلا من وزير الخارجية يعني أن القادم لم يأت لإجراء حوار أو استمزاج أفكار، بل جاء لإصدار تعليمات وإملاء قائمة تسهيلات وفواتير دفع.

وفي مقابل هذه الملاحظات المختلفة التي تعني أن التصريح حول الدولة الفلسطينية عبارة عن تصريح استهلاكي غايته زج العرب والمسلمين في التحالف الأمريكي البريطاني، يقول الرئيس اليمني إنه علم من مصدر سعودي في الرابع من أيلول سبتمبر الماضي، أي قبل يوم الهجوم على نيويورك وواشنطن بأسبوع، أن الولايات المتحدة أبلغت السعودية أنها ستطرح مبادرة منها في هذا الشأن لدى انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة. ومعنى ذلك أن التصريح الأمريكي حقيقي وليس استهلاكيا تكتيكيا. وهذا يعيد إلى الذهن عهد جون كينيدي قبل حوالي أربعين سنة. فمن المعلوم أنه كان في أعقاب مراسلاته الشهيرة مع عبد الناصر قد أصدر تعليماته إلى مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، للاستعداد لتقديم مشروع قرار أمريكي يدعو إلى إحياء قرارات الشرعية الدولية التي عشش في أدراجها العنكبوت. ولكن الذي حدث، قبل أن يتمكن الرئيس الأمريكي من وضع كلمته موضع التنفيذ، أنه اغتيل فجأة وانطوى مشروعه في أدراج النسيان. وهذه الواقعة هي من جملة الوقائع التي توضح معنى القول إن الرئيس الأمريكي لا يملك كلمته في شأن الشرق الأوسط. فمنذ عهد دوايت آيزنهاور (الذي كان بطل حرب وشخصية مستقيمة)، لم ير العالم رئيسا أمريكيا استطاع أن ينفذ كلمته في الشرق الأوسط.

أسئلة لا تحصى

على أن الوعد الأمريكي حتى على افتراض صدقه وافتراض أن بوش يملك أن يحافظ عليه يظل شيكا غير محدد القيمة مسحوبا على بنك مجهول محل الإقامة. فأهم شيء في تجديد الكلام عن موضوع الدولة الفلسطينية هو الآلية التي توصل إليها. وإذا كان الأمريكيون سوف يحيلون الفلسطينيين من جديد على المفاوضات المباشرة مع إسرائيل، برعاية ممثلين أمريكيين صهيونيين مغرضين، فلا معنى للمبادرة من أساسها. ويجب أن يفهم الأمريكيون أيضا، ولو أنهم الآن في مزاج يحسون معه أن لهم الحق في الإملاء على العالم دون مناقشة، أن الفلسطينيين لا يمكنهم أن يشتروا هذا الوعد مقابل الموافقة على حبس أو قتل نصف تعداد قواهم الحية. أضف إلى ذلك كله أن الحلف والعمل العسكري الجزافي الأمريكي ضد أية دولة أو جماعة إسلامية أو عربية مرفوض على الصعيد الشعبي من قبل المنطقة كلها، ولكن الجميع في الوقت نفسه يتفهمون التحقيقات والعقوبات ضد المسؤولين عن الهجمات الرهيبة متى ثبتت إدانتهم قضائيا.

نقول ما نقول دون أن نخوض في التفاصيل الجوهرية من قبيل: ما حدود الدولة وما مدى استقلالها السياسي والاقتصادي وما علاقتها مع أخواتها العربيات؟ ذلك أن كل سؤال من هذه الأسئلة، إذا لم تكن هناك إجابة معقولة عليه فسوف يكون المشروع كله عبثا في عبث، وتعود الأمور إلى المربع الأول كما يحلو للبعض أن يقولوا. وعند ذلك يستوي أن تكون أمريكا جادة في أساس المشروع أم هازلة وأن تكون مخادعة أو غير مخادعة.